حول مسألة العربية الفصحى

اين الحرج ؟

بقلم رئيف خوري

« العربية الفصحى في حرج ؟! » هذا البحث الذي انشأه الدكتور عبد العزيز الاهواني في العدد الماضي من «الآداب» يستوقف حقاً بالقدر الذي اشتمل عليه من الصراحة والجرأة والعلم في اثارة مسألة تصعب المبالغة في تصوير مدى اهميتها .

اثار الدكتور الاهواني هذه المسألة بوضوح ودقة حين قال: «هل تعتبر اللغة العربية التي نكتب بها ونخطب بها احياناً لغة حية كالفرنسية والانكليزية ؟ او هي لغة ميتة كاللاتينية واليونانية القديمة ؟ » وبرغم انه لم يجب عن هذه المسألة جواباً مباشراً ، فالمفهوم انه لا يعد عربيتنا الفصحى لغة حية بملء معنى الكلمة ، بل هو يصرح انه في حين من الاحيان اعتقدها لغة ميتة ، غير ان قوة الرجعية في العالم العربي قد حالت بيننا وبين ان نجعل مصيرها كمصير اللاتينية دفناً او تحنيطاً في الكتب الموروثة . ولكن الدكتور على ما يبدو من بحثه ، قد طلق هذا الاعتقاد اليوم ، او هو قد اخضعه لشيء من التعديل . فاذا التمسنا من خلال كلامه ان نخرج بتحديد وضبط لما عسى ان يكون هذا الاعتقاد الذي اصبح يعتقده اليوم ، فما اخالنا ظافرين . فهو لا ينفك يقايس بين حال اللاتينية بالامس واللغات الرومانية (اي : اللغات العامية) وحال العربية الفصحى اليوم والعاميات المنتشرة في العالم العربي . ومع ذلك نراه يعترف بان الحال اليوم هو غير الحال بالامس ، وبان المقايسة لا تصح من جميع الوجوه ، ويدلي على ذلك بالبراهين المقنعة . وهنا لا يملك القارىء ان يسأل: اذاً فما معنى هذه المقايسة التي استغرق فيها واستغرقت اكثر بحثه ؟

وينتهي الدكتور بتلخيص الموقف ان امام العربية طريقين : فاما الموت واما ما سماه التطور الضخم . وهو ينتظر عبقرياً موهوباً يشق للناس سبيل هذا التطور الضخم . والدكتور ساكت عما عسى ان يكون بالتفصيل او بالاجمال هذا التطور الضخم. كل ما يعلمه ان العبقري المنتظر لن يجد منفذاً الى تحقيق هذا التطور الا عن طريق الشعب ولغة الشعب . وكل ما يعلمه ايضاً ان المستقبل القريب لن يسمح بقيام لغتين متميزتين (يعني الفصحى والعامية) بل لا بد من التقارب الشديد ان لم يكن الاندماج التام .

وهكذا يختتم الدكتور الاهواني بحثه على صورة ادنى ما توصف به الغموض . فاذا كانت العربية الفصحى في حرج فالدكتور نفسه في حرج من امره وامرها !

والواقع اننا جميعاً في مثل هذا الحرج . لكني موقن يقيناً لا يتطرق اليه الشك ان هذه المقايسة بين حال العربية اليوم واللاتينية بالامس جهد عقيم مضر ، فضلاً عن انه غلط فاحش . فاللاتينية قد قارن موتها ان العالم الذي كان يتكلمها انقسم قوميات شتى ذات خصائص جوهرية مختلفة منها خاصة اللغة . فاما العالم الذي يتكلم العربية اليوم فهو يسير شطر الاتحاد والتمازج بعكس العالم الناطق باللاتينية في الامس .

وبعد ، يخيل لي ان الدكتور الاهواني يعالج مسألة اللغة بالانقطاع عن العوامل والظروف والاوضاع السياسية . ان مصير العربية الفصحى لا يمكن فصله قط عن معركة العرب والاستعمار . فهل يستمر هذا الاستعمار بشتى اشكاله وصوره ، فيستمر في حرب اللغة العربية كما حاربها بالامس ، ام ينهار هذا الاستعمار انهياراً — على ما هو متوقع محتوم — ويتحرر العرب ويتعاونون ويتحدون ، ويعززون هذه الفصحى التي تؤلف احدى الروابط الوثقى بينهم ، وتخلص الفصحى على ايديهم من هذا الوهن الذي اصابها لمجرد ان ليس وراءها دولة او دول مستقلة كل الاستقلال قوية كل القوة ؟

افيحسب الدكتور الاهواني ان ثلاثة أرباع هذا « التخريف » الذي نسمعه عن صعوبة العربية لا يسقط بمحض ان تصبح هذه اللغة لغة دولة كبرى ناهضة ، يشترط في مواطنيها ان يتقنوا لغتها ، وتيسر لمواطنيها ان يتقنوا لغتها ،

ولا تنقاد لمواطنيها اسباب الرزق إلا اذا اتقنوا لغتها ؟!

وهذا بالطبع لا يعني أن العربية الفصحى هي في غنى عن ان نطوّرها تطويراً . لكن حرجها في رأيي ليس ناجماً من ضعف في طاقتها على التطور او في قابليتها له ، بل هو ناجم عن حرج الناطقين بهذه اللغة ، اعني العرب ، حرجاً لن يزول إلا بتغلبهم على الاستعمار واستئصال سرطانه ، واجتماعهم في كيان عربي قوي ناهض .

فذلك هو الشرط الاساسي لتستعيد العربية الفصحى حريتها التامة ، فلا يوجد في ابنائها من يهملها او يزدريها ، على النحو الواقع اليوم في بعض الاحوال . وذلك ايضاً هو الشرط الاساسي لنشفى نحن من غيرة الكثيرين منا على الفصحى وسلامتها غيرة ضيقة تؤذيها وتكاد تخنقها بما تسد عليها من منافذ النور والهواء . فاذا شفانا التحرر والاستقلال والشعور بالثقة والعزة من هذه الغيرة المؤذية استطعنا عندئذ بعقول احسن استعداداً وبوسائل اوفر واجدى ان نأخذ في تطوير هذه اللغة تطويراً تتساوق فيه جهود العلماء المتخصصين وابداع ابناء الشعب الذين يرافقون الحياة .

ولن اجيز لنفسي ان اختم هذا التعليق إلا باشارة ، ولو سريعة ، الى ما يحضرني الآن من الاسس التي ارى ان يتبعها هذا التطوير المنشود للغتنا الفصحى .

اولاً : التماس صيغ جديد يمكن ان تصاغ بها الجمل العربية ، وذلك بعد احصاء الصيغ القديمة المعروفة ، وبعد تتبع صيغ الجمل في عامياتنا وفي لغات العالم لنرى ايها يمكن الانتفاع به في لغتنا الفصحى المستحدثة .

ثانياً : تشجيع التسكين والتخفيف . (والدكتور الاهواني قد نوه في بحثه تنويهاً موفقاً بفضل التسكين على بقاء صلة العربية الفصحى بالشعب) .

ثالثاً : اصطفاء الجميل والمعبّر والمستَخف من اللفظ الذي استحدثته العامية والحاقه بلغة الكتابة الفصحى .

رابعاً : أخذ كل لفظ من اللغات الاجنبية لا مرادف له بالعربية ، وذلك بعد تحويله إلى وزن عربي .

خامساً : إعادة النظر في أساليب تدريس اللغة العربية وفي طرق تأليف معاجمها .

رئيف خوري

رسالة

[الى (ك) الذي يضع رسائله في صندوق الجوز]

•

يا صديقي
مرّت الايامُ .. والايام .. لكن
لم تقل لي أيّ سرٍ غيبك
فكأنا لم نكن في ساعةِ الضيم معا
يوم هزّتك المقاديرُ معي
وانا أصمد للموت معك

***

وكأنا يا صديقي
لم نعانق بعضنا يوم افترقنا
وتعاهدنا على ملء الرسالات كلاما
وانا انتظر اليوم سلاما
لم تقل لي
يا صديقي أيّ سرٍ غيّبك
فكأنا ما التقينا
أنت لا تعرفني الآن .. كمثل الآخرينا
وأنا أشتعل الآن حنينا

***

يا صديقي
هي أرضي .. تلك ما انت عليها الآن تمشي
وتدوس الآن ذكراي .. على الذكرى .. ولكن
أنت لا تعرفني الآن كمثل الآخرينا
المناكيد .. الألى يأبون — في العام — سلاما
خلّهم .. يا سيدي .. قوماً نياما
إنما .. انت صديقي
وانا انتظر اليوم الذي تكتب فيه
بعض ما كنا اتفقنا
وافترقنا .

نيقوسيا — قبرص

ابو المكارم عبدالله